ما أشبه الليلة بالبارحة

سافرت فى اجازة قصيرة الى بريطانيا فى يونيو الماضى لحضور الأجتماع السنوى للكلية للأطباء النفسانيين البريطانية فى أدنبرة .. وعدت لقضاء بقية الاجازة مع أبنى الدكتور نادر وأسرته فى مدينة ابسوتش فى شرق انجلترا ووجدته قد بدأ وظيفة جديدة كاخصائى للطب النفسى فى منطقة تغطى مدينة (بيتربرا) فى مقاطعة (لنكشير) فى تخصص (علاج الادمان) .. وهى نفس المدينة التى كنت أغطى فيها عيادة أسبوعية عندما كنت فى بعثة التخصص فى السبعينات والجديد بالذكر ان مستشفى الامراض النفسية والعصبية القديم فى المنطقة والذى كان ورثة الأطباء السودانيين فى ضاحية (روسبى) قد هدم وحلت محلة وحدة تخصص علاج الادمان فى المنطقة الطبية ولم يكن تخصصا قائما بذاته حيث لم يفرض نفسه كاليوم ضمن قائمة الطاعون الحديث فى العصر الذهبى للازمات النفسية.

والجديد أننى عندما ودعت بريطانيا فى قصيدة (كلمات ملتهبة فى وداع صديقتى بريطانيا)عام 1974م والتى نشرت في صحيفة ألوان قبل أسابيع كانت هى نفس المدينة التى استقبلتنى بالاحضان لتقول لى (ورجعت ما أحلى الرجوع إليه .. خير سلف لخير خلف وان شمس الأمبراطورية ما زالت تشرق فى بعض الأوقات رغم كل الأزمات) ورغم ما قلته فيها فى الماضى وقد عشت فيها وودعتها وكان ابنى طفلا يأتى للتسوق معى فى بقالة الباكستانى وشراء اللحم الحلال ... ها هو قد صار أبا يأتى بأطفالة لزيارة الجالية الباكستانية والهندية التى أصبحت أكبر شريحة من السكان وكانت بضع عشرات فى كل منطقة .. وما زال قلب بريطانيا الكبير يتسع لكل الذين جاءوا من كل حدب وصوب يستلمون استحقاقاتهم من حقبة الاحتلال الطويل .. ويبحثون عن المقابل الموضوعى والمادى لسنوات القهر وحقبة الاستعمار وزمان الاستكبار. واكبرت فى بريطانيا رحابة الصدر التى تقابل بها جيوش الغزاة من قارات العالم ولكنها تتمتع بذلك القلب الكبير وتقول لى ما أشبه الليلة البارحة .

عود على بدء .. ذهبت مع ابنى وأسرته الى لندن ذات صباح .. وزرت (هايدبارك) الركن الوحيد المتبقى فى أركان العالم الأربعة وما زال يحتضن حشرجة المذبوحيين .. وصرخات المقهورين الباحثين عن الحرية حرية التعبير .. من كل الاجناس .. والأديان .. والألوان .. الوان الطيف السياسى والفكرى والعنصرى .. نفس مسيرة تواصل الاجيال تحرسهم الشرطة البريطانية بالصورة التقليدية التى تحيط كالسور بالمعصم .. حول سوق عكاظ .. ورغم أن بعض أهل عكاظ قد انحسر مدهم الثورى .. وزخمهم اللغوى .. وطموحاتهم القومية .. وشطحاتهم الشعوبية الا أن بعض الأصوات ما زالت تقول:

أرى تحت الرماد وميض نار ويوشك ان يكون له ضرام

PDF processed with CutePDF evaluation edition www.CutePDF.com

ورغم ان الذين يعتلون المنصة وقلوبهم مع (على) وسيوفهم مع (معاوية) .. وعيونهم على الجواز الأجنبى .. يتسترون تارة تحت مظلة حقوق الانسان .. وتارة تحت لافته حق اللجوى السياسى .. والف مرة خلف الطابور الطويل فى انتظار العودة الى بلادهم المنكوبة ضمن حملة الغزو .. أو راية التحرير .. وهذه أخر الطرق المشروعة فى السلوك غير الشرعى والمتبع فى نظام العولمة لحل الأزمات الداخلية على طريقة الشرعية الدولية ..

وقبل ان اخرج من هذا المولد .. الذى لم يعد له فقية أو فيه مرشد حيث كانت تتبناه الحكومات الليبرالية التقليدية من أقصى اليمين الى أقصى اليسار بقيت هايدبارك ... منتزها بلا بوابة دخول .. او لافته خروج تحمل عبارة حرية الرأى للجميع .. رأى الحكومة رأيا واحدا .. صوتا واحدا غالبا لرأى أغلبية الشعب فى عظائم الأمور ولله فى خلقه شئوون .

عود على بدء .. أقول والحق يقال .. ليس لاننى درست فى بريطانيا .. وتخصصت فيها .. وليس لان ابنى هاجر الى بريطانيا .. وتخصص فيها .. وضاعف حظة من العلم ولم يكلفنى نفقة مثلما كلفت الحكومة السودانية أعباء النفقات الدراسية وما زالت نفسى مثقلة بهموم تلك الديون التى تهد كاهلى وقد حاولت سدادها بالجملة والتقسيط ولم أعرف وسيلة الدفع حتى اليوم .. واكثر من هذا ان رغبتى فى سداد هذه الديون هى التى دفعتنى لان اتجاسر على بريطانيا ... اعتدادا بالوطن الذى ينتظرنى .. ورددت هذا نثرا .. وشعرا .. وسجلته موثقا ومودوعا فى (دار الوثائق الوطنية) .. واسقطت على بريطانيا هموم وطنى المثقل بجراحات الهزيمة من الداخل منذ مايو وحتى اليوم .. الا ان عذائى ان ما قلته فى بريطانيا اشبه بالدعاء عليها فى ديوان (قصائد من بريطانيا) قد كانت رؤية سياسية تحققت فى اكثر جزئياتها بلا شماته .. وزاد عليها هذا السلوك المزدوج فى سلوك حزب العمال الوريث الشرعى لقضايا المستضعفين والذى أصبح اكثر شراسة من حزب المحافظين والذى كان اكبر الأعداء .. فى قلاع المتنكرين لحقوق المحرومين والمستعبدين فى ارجاء الامبراطورية القديمة ..

وزاد من حزنى رؤية هذه الهجمة الشرسة من دول الكمنولث على بقايا الأشلاء من الامبراطورية المفترسة بالأنياب والأظافر ..حتى انك تتساءل اين بريطانيا .. فى وجوه البريطانيين ولا تراها ..

لقد التقيت صديقا قديما من محطة (مترو الانفاق) من زملاء الدراسة الدبلوماسين المخضرمين من الرعيل الأول وسألنى كيف لقيت لندن ... وقلت له .. ما لقيتها !!! وضحك وقال لى أتذكر مقولة الزعيم محمد أحمد المحجوب عندما كان يسكن فى شقة فاخرة بحى (ساوث كنسجتون) بعد إنقلاب مايو وقلت له : نعم .. وكيف أنسى .. وكان هذا الصديق هو نفس الرجل الذى دعانى عندما كنا فى لندن فى السبعينات فى زيارة صديق يتعالج فى مستشفى (يو ... سى .. اتش) وطلب منى أن اذهب معه لزيارة القطب الكبير فى داره العامره بعد غيبة طويلة ...

وعندما دخلنا الدار كان فى الداخل لاستاذ السفير السابق احمد سليمان المحامى والوزير الاسبق أحمد زين العابدين المحامى وجماعة من اخوان الصفا من الأدباء والسياسين واهل الفكر والصحافة الذين جعلوا من دارة منتدى للقاء والحوار فى شتى شئون الحياة ... فبادر الصديق الزعيم بالسؤال وين الغيبة يا زعيم إإ فقال كنت فى زيارة للسودان فقال له .. كيف لقيت السودان فردد على الفور ما لقيته .. وصمت الجميع .. ولم يزد فى كلامه .. وطال الصمت وكانما كان الجميع يتأمل معانى الاجابة القصيرة المثيرة .. الدقيقة البليغه .... الجامعة المانعة .. المفزعة الموجعة وما زال صدى صوته يرن فى اذنى كلما زرت السودان أو خرجت منه متسائلا كيف لقيت السودان ؟ وفى كل مرة يتكرر السؤال وتتنوع الاجابة ..

الا حفظ اللّه السودان من شر ما خلق ومن شر غاسق اذا وقب ومن شر النفاثات فى العقد ومن شر حاسدٍ إذا حسد .

الدكتور الزين عباس عمارة – ابو ظبى